الجزء الثالث من السنة الثالثة من المقتطف

العرب وبعض مآثرهم

صنائع الاندلسيين وثروتهم (تابع ما قبله)

وصنع في الزهراء بحيرة وضع فيها الحيتان انواعًا وكان يخبز لها كل يوم ثماني مئة خبزة وقبل اثني عشر الف خبزة وينفع لها من الحبس الاسود ستة اقفزة . اما قصر الزهراء فكان متناهيًا في الجلالة والفخامة والرواة يقولون انه لم يدخل اليه احد من سائر البلاد النائية والمحل المختلفة الاّ وكلهم قطع انه لم يرَ له شبيهًا بل لم يسمع به بل لم يتوهّم كون مثله حتى انه كان من اعجب ما يوصله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه . وكانت مجالسه مبلطة بافخر انواع الرخام وسقوفها مغشّاة بالذهب الابريز وابوابها من خشب الارز منقوشًا نقشًا بحيّر الالباب وعمدها غاية في الاحكام والاتقان كانها افرغت في قوالب . وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي الى ابدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيّلة تعجز عن تصوّرها فكيف بحد القلم الى وصفها سبيلاً . واشرف هذه المجالس وابهاها المجلس الذي كان يُسمّى قصر الخلافة قال المقري بصفته

وكان سمكهُ (سقفهُ) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونهُ المتلونة اجناسهُ وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجعلت في وسطهِ البتيمة التي اتحف الناصرَ بها اليونُ ملك القسطنطينية . وكانت قوائم هذا القصر من الذهب والفضة . وهذا المجلس في وسطهِ صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصّع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانهِ فيصير من ذلك نورٌ يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احدًا من اهل مجلسهِ اومأ الى احد صقالبتهِ فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك . انتهى

واحدق الناصر بالقصر بساتين عديدة الاشجار متنوعة الاثمار كثيرة الفياض من آس وغار وكل نبت طيب الرائحة واجرى في الزهراء المياه حتى جعلها جنة من اجمل جنان العالم يتبرّد فيها من حرّ النهار . اما ما يعد بالصواب مأثرة من مآثر الاندلس فهو جرّهُ الماء الى قرطبة من الجبال التي حولها في اقنية غريبة الصنعة . قال في نفح الطيب

وكمل للناصر بنيان القناة الغربية الصفة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة في المفاخر الهندسة وعلى الخنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة عليها اسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد ابهى منه في ما صوّر الملوك في غابر الدهر مطليٌّ بذهب ابريز وعيناهُ جوهرتان لهما وميض شديد يجوز هذا الماء الى مجز هذا الاسد فيجيء في تلك البركة من فيهِ فيبهر الناظر بحسنهِ وروعة منظرهِ ونجاجة صيهِ فتسقى من مجاجهِ جنات هذا القصر على سعتها وبستغيض على ساحاتهِ وجناتهِ ويمد النهر الاعظم بما فضل منهُ فكانت هذه القناة وبركها والتمثال الذي بنصب فيها من اعظم آثار الملوك في غالب الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو ابراجها التي يرقى الماء منها ويتصوب من اعاليها » انتهى

ومن مباني الاندلس المشهورة قصر طليطلة شادهُ المامون بن ذي النون وجلب اليهِ اهل الصناعة والمهندسين والمصورين من الاقطار «» وانفق الى الغاية وانفق عليهِ اموالاً طائلة وصنع في وسطهِ بحيرة وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب وجلب الماء على رأس القبة بتدبير احكمهُ المهندسون. فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتصل بعضهُ ببعض فكانت قبة الزجاج في خلالهِ مما سمك خلف الزجاج لا يفتر من الجري والمامون قاعدٌ فيها لا يمسهُ من الماء شيءٌ ولا يصلهُ وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع «» قال ابو محمد البصري يصف البركة والقبة عليها

شمسُ الانام بدرية بحارُ في تشبيهها الخاطر
كانما المامون بدرُ الدجى وفي عليهِ الفلكُ الدائر

ولا يسعنا ان نستكمل وصف ما كان بالاندلس من المجر الوسيع والاثاث النفيس والمصنوعات الفاخرة والزخارف الزاهرة والنقوش الباهرة والمساجد المحكمة الشامخة والقصور المزوّقة الباذخة والصور والتماثيل والحوكات والحياض والنواعير والفوارات الى غير ذلك من غرائبها . فنجتزئ عن ذلك بابيات من نظم ابن حمديس الصقلي تشهد لهُ بالوصف الشائق والنظم الرائق وللاندلسيين بحسن الذوق وكمال البراعة في البناء والنقش والتصوير والتزويق وسائر انواع الزخرفة. قال من قصيدة يصف بها قصرًا وبركةً فيهِ عليها اشجار من ذهب وفضة تفع المياه من فروعها وعليها تماثيل اطيار وتفنن فذكر اسودًا على حافاتها قاذفة بالمياه ايضًا

وضراغم سكنت هرين رياسةٍ تركت خرير الماء فيهِ زئيرا
فكانما غشى النضار جسومها واذاب في انوارها البلورا
اسد كانَّ سكونها فعرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكانها فكانما اقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها نارًا والسنها اللواحسَ نورا
فكانما سلت سيوف جلاولٍ ذابت بلا نارٍ فعدنَ غديرا
وكانما نسج النسيمُ لماءهِ درعًا فقدر سردها تقديرا

وبديعة الثمرات تعبر نحوها عبثاي بحر شجائب مجرورا
شجرية ذهبية نزعت الى بحر يؤثر في النهى تاثيرا
قد صوبت اغصانها فكانما قبضت بهنّ من الفضاء طيورا
وكانما تاتي لوقع طيرها ان تستقلّ بنهضها وتطيرا
من كل وافعة ترى منقارها ماء كسلسال الجبين نميرا
خرس تعدّ من الفصاح فان شدت جعلت تغرّد بالمياه صغيرا
وكانما في كل غصن نضة لانت فارسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كانما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا بالنقش فوق شكولو تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلاً ووشيه شمس ترذّ الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عجدة انني حاست لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها فارّتك كلّ طريفة تصويرا
وكانما للشمس فيه ليلة منثوا بها التزويق والتشجيرا
وكانما اللازورد فيه محرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكانما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها منصورا

علوم العرب وبعض علمائهم

ان كان المقام لا يسمح باستيفاء صنائع الاندلسيين فيا الاولى لا يسمح باستيفاء علوم العرب وتفصيل ما وضعوهُ منها وما وسعوهُ ورقوهُ فكلامنا على علومهم في غاية الاختصار مقتطفٌ من كتب افرادهم وبعض من كتب عنهم

للعارف عند العرب زمانان زمان قبل الاسلام ويُعرَف بزمان الجاهلية وزمان بعدهُ ويُعرَف بزمان المولّدين اما علوم الجاهلية فكانت منصورة على لغتهم والنظم وعلم النجوم على ما يذكرهُ ابو الفرج وزعم بعضهم ان الجاهلية كانوا على جانب عظيم من العلم والفلسفة وان فيثاغورس الفيلسوف اليوناني استمدّ اكثر معارفهِ منهم كما روى الفيلسوف ملك (بورفيريوس) ووافقهُ جماعة من المتأخّرين

واما زمان المولدين فيبتدئ من خلافة المنصور من خلفاء بني العباس فانهُ اوّل من شرع في ادخال المعارف الى العرب فنقل سرير الخلافة من دمشق الى بغداذ وزاد على معارف قومهِ علوماً لم يكن لها وجود عندهم . وبعضهم يحسب زمان المولدين من خلافة المامون حفيد المنصور لان المامون اتمّ ما شرع فيهِ جدّهُ فجمع وترجم افضل كتب العراق وبلاد فارس واليونان ومصر مما يبحث عن الهيئة والطبيعيات وتخطيط الاراضي والموسيقى وغيرها وغرس للعلم في بلادهِ جنة ناضرة